

السؤال طرحته الجمعية التاريخية والإجابة لعشرين باحثا: الحملة الفرنسية على مصر هل كانت مشروعا للتتوير؟!

محمود قرني

2009/11/25



القاهرة . 'القدس العربي' ماننا عام على الحملة الفرنسية . رؤية مصرية\* مجلد جديد صدر عن مكتبة الدار العربية للكتاب بالقاهرة، والكتاب من تحرير د. ناصر أحمد إبراهيم وتحت إشراف الراحل رؤوف عباس رئيس الجمعية التاريخية، وشارك فيه أكثر من عشرين باحثا ومؤرخا.

يدرس الكتاب الحملة الفرنسية على مصر '1798- 1801' من شتى الزوايا، وقد تم تقسيم الكتاب الى أبواب مثل: المقاومة، نقد المشروع، إشكاليات اتجاهات التفسير المتعلقة بها، وكيف تجلت الكتابات عنها في المنظور العربي المعاصر، وهل كانت الحملة صدمة فعلا، ثم تختتم الأبواب بقراءة نقدية للمسألة كلها، في رؤية مصرية لتطور التاريخ الحديث في مصر، ذلك التاريخ الذي يجعل البعض الحملة الفرنسية مفصلا من مفاصله الرئيسية، رغم أنها كانت قطعاً في التطور الطبيعي لهذا التاريخ. لم تقع الدراسات التي حوّاها الكتاب تحت وطأة الانهيار بالفرنسيين، الأمر الذي أتاح للرؤى المتنوعة أن تكون موضوعية وخالية من التحامل الذي تحتمله الرؤى التاريخية، ولم تقع كذلك في فخ رؤية الذات رؤية مثالية اعتماداً على تاريخها الذي كان ذهبياً، وإنما تم وضع الحملة في سياقها من تطور التاريخ العالمي في الشرق الأوسط، وفي القلب منه مصر، ذلك أنه عندما جرى الاحتفال في مصر بمناسبة مرور قرنين على الحملة، كانت معظم كتابات الفرنسيين تركز على الحملة باعتبارها رسالة حضارية قامت من خلالها فرنسا بنقل الحضارة الغربية الى الشرق الإسلامي المتخلف. ولعل صدور هذا الكتاب الآن، في ظل الصراع على الشرق الأوسط ايضا بما يشكل حلقة متشابهة مع ظروف الحملة في نهاية القرن الثامن عشر، يعني أن المهتمين بتاريخ المنطقة غير غافلين عما يجري حولهم من صراعات وأنهم على مستوى التحدي الحضاري. والكتاب الذي صدر في 750 صفحة من القطع الكبير، كان محصلة مؤتمر الجمعية التاريخية الذي خصصته لهذا الموضوع عام 1998، من منطلق إعادة تقييم الحدث ووضع ما ترتب عليه من آثار سياسية وثقافية على مصر والشرق العربي في حجمها الحقيقي، حسب وصف الدكتور رؤوف عباس المشرف على الكتاب، الذي يضيف ان الكتاب وضع الحملة الفرنسية في إطار المشروع الاستعماري الأوروبي، ولذلك يتوقف امام موجات المقاومة الضارية التي لقيتها الحملة في البقاع والأقطار المصرية، فلم تتركز المقاومة في قاهرة والإسكندرية فحسب، بل شملت ريف الدلتا والصعيد، كما أن الوجود الفرنسي في مصر لم يكن هينا لينا، بل واجه جنود الحملة مختلف الأمراض التي حصدت أرواح بعضهم كما أفقدت الإصابة بالرمد الصيدي العديد منهم نعمة البصر.

يختتم رؤوف عباس تقديمه بنقطة مهمة تغيب عن بال الكثيرين حين يقول: لم تكن تعيننا رؤية شيوخ المؤرخين وحدهم بل حرصنا على أن نعطي المساحة الأكبر لشباب الباحثين حتى يتحقق التواصل الفكري بين الأجيال ويتاح للشباب التعبير عن رؤيتهم الخاصة لهذا الحدث.

ويضيف عباس: لم يغيب عن بحوث الندوة إبراز الدلالة السياسية للحملة من حيث لفت أنظار المصريين والعرب إلى عجز السلطة العثمانية عن حماية التراب الوطني من العدوان أجنبي، وإحساس المصريين . وخاصة قيادتهم الشعبية . بضرورة وضع أسس الحكم على قواعد جديدة تسمح لهم بقدر من المشاركة فيه، يدخل في هذا السياق المقاومة الشعبية

لطغيان الجند العثمانيين والمماليك بعد خروج الحملة، والدور الذي لعبته القيادة الشعبية في اختيار الوالي الذي يحكمهم ( محمد علي) وفق شروط محددة. وقدرت البحوث مدى تأثير محمد علي بالنظام العسكري الحديث الذي لمسه من الاحتكاك بالفرنسيين قبل خروجهم من مصر، والأسباب التي دفعتة الى الاستعانة بالفرنسيين في مشروعه السياسي.

أما الدكتور ناصر أحمد إبراهيم محرر الكتاب فيرى أنه بات من الضروري قراءة مثل هذا الحدث الكبير بعيدا عن النزعة القومية في الكتابة التاريخية التي تؤثر تقديم الأفكار على الوقائع أو تقلص مجال الرؤية عن متابعة التطورات الحقيقية التي صاحبت ذلك الحدث، وهو ما يراه ناصر سببا فرض نفسه في عمل الكتاب لا سيما في محاولة تقديم صورة موضوعية تعيد تقييم حدث الاحتلال الفرنسي لمصر على ضوء الظروف التي أحاطت به، كما تكشفها الوثائق الفرنسية والمصرية، قراءة متحررة من أسر المقولات التقليدية والتوجهات السياسية والرهانات الأيديولوجية التي لا تزال تهيمن على وعينا التاريخي إزاء تلك الفترة.

ويضيف ناصر إبراهيم سببا آخر لإصدار مثل هذا الكتاب الرجعي عن الحملة الفرنسية ألا وهو المتمثل في وجود اهتمام أكاديمي ملحوظ بدأ مع الجمعية المصرية للدراسات التاريخية التي أخذت زمام المبادرة وعقدت ندوة كبيرة حول الحملة الفرنسية في العام 1998، ولسوء الحظ لم تنشر أوراق تلك الندوة. حسب إبراهيم. لكنها كانت موحية بأهمية فتح النقاش حول قراءة هذا الحدث.

ويوضح إبراهيم المنصور بمجلة ' رؤية مصرية' للحدث أنه لا يحمل بالضرورة رؤى تناقض الرؤية الفرنسية، لكنه. في كل الأوراق ولدى كل الباحثين. كان هناك طرح علمي دون الاستناد الى قاعدة أيديولوجية، ويقول إن الأفكار المتضمنة في الكتاب لا تمت بصلة لأي نزعة قومية أو ذاتية، وتشهد بذلك الاشكاليات المتباينة والمناهج المختلفة وأحيانا الآراء المتناقضة المتضمنة في بحوث هذا الكتاب.

ويقول محرر الكتاب انه يشتمل على محورين كبيرين: الأول يدور حول الاحتلال الفرنسي كحدث تاريخي، والثاني يقدم النظرة التاريخية للحدث، ومن ثم فالمعالجة تأخذ مستويين من النقد والمراجعة، مستوى يناقش الكيفية التي تطورت بها الوقائع خلف هذا الحدث، والمستوى الآخر يتوقف عند المناهج التي عالجت الموضوع وتطورها على مدار القرن الماضي.

وبلغت المحرر الى سمة أساسية ميزت المحاور التي انطوى عليها الكتاب وهي طابع الشمول والتكامل والانسجام بين الموضوعات المعالجة فيه، حيث تم التنسيق بين المحاور التي غطت بالفعل جوانب عديدة من تاريخ الاحتلال الفرنسي: الرفض والاحتجاج والمقاومة وتنوع أساليبها وأشكالها ما بين مقاومة مباشرة انتشرت في كل مكان، ومقاومة غير مباشرة، ظلت تتحدى الاحتلال وتطوق عليه الحصار الاقتصادي الداخلي بأساليب خفية أعجزته عن تدبير احتياجاته الإدارية وجعلت استمراره بقائه مستحيلة، ومن المقاومة الى الدعاية لكل ما هو أيديولوجي أثناء الاحتلال ما بعد جلاء الاحتلال، وفن صناعة الاسطورة وعقيدة الدعاية السياسية ومخاطرها في تزييف الواقع وتشويه الحقائق التاريخية. ويقول الدكتور ناصر إبراهيم أن معظم الإسهامات في هذا الكتاب تشير إلى رفض قاطع لقبول تفسير الاحتلال الفرنسي لمصر على ضوء ' نظرية الاستعمار الإيجابي' أو التعامل معها على أنها ' مشروع تنويري' كما قدمت الأوراق. حسب ناصر. شواهد وقرائن مهمة تنفي صحة مقولة ' الفراغ الثقافي والعلمي' قبل مجيء الاحتلال الفرنسي، وأن قصر مدة الاحتلال مع انتشار الثورات وأنواع المقاومة المختلفة التي عمت وقائعا معظم مدن وقرى الدلتا والصعيد، والانشغال الدائم بمواجهتها، فضلا عن حاجز اللغة وتباين ثقافة وسلوكيات الضباط والجنود المنافية للدين والعقيدة، وخصوصية العادات والتقاليد المحلية، إلى جانب حالة الاستعلاء التي ميزت بشكل عام نظرة الفرنسيين إلى المصريين، قد حالت جميعها دون وجود أرضية مشتركة للحوار والتواصل بين الجانبين آنذاك سوى في حدود ضيقة، ويرى إبراهيم أن كل ذلك أثار الشكوك حول مدى اندماج المصريين وتفاعلهم مع ما قدم لهم من الاحتلال الفرنسي سواعير طريقة مباشرة أو غير مباشرة، وإن كانت هذه النقطة الأخيرة والاندماج والتفاعل بين الجيش والمجتمع، لم تعالج بصورة كافية، وتعد من الموضوعات الهامة التي لا تزال في حاجة الى أن تفرد لها مجموعة من الدراسات والأبحاث.

كما يشير ناصر إبراهيم الى ان الإسهامات في داخل الكتاب أكدت رفض هيمنة الخطاب الفرنسي والانتقائي الذي ساد نمط الكتابة عن الحملة لعقود طويلة، وأن تجربة الإصلاح والتحديث في النصف الأول من القرن التاسع عشر لا يمكن اختزالها أو اعتبارها مجرد أثر ناجم عن هذا ' المؤثر الخارجي' المتمثل في تلك الغزوة العسكرية. ويضيف إبراهيم أن الأوراق من ناحية أخرى تؤكد أن الحدث لم يمر على المصريين مرورا عابرا دون أن يترك آثارا معينة غير مباشرة جعلت المصريين يدركون حقيقة تخلفهم وضرورة سد الفجوة الفاصلة بينهم وبين الغرب، ويشير أيضا الى ان بعض وجهات النظر في هذا الكتاب تعارض هذه النتائج وتتمسك بأن الاحتلال الفرنسي كان ' صدمة حضارية وثقافية' ظهرت انعكاساته بعد ذلك خلال تجربة التحديث في القرن التاسع عشر.

شارك في هذا الكتاب كل من الدكتور نبيل الطوخي يبحث تحت عنوان وسائل المقاومة في صعيد مصر ضد الحملة الفرنسية، والدكتور ناصر أحمد إبراهيم محرر الكتاب الذي شارك في بحث تحت عنوان 'مقاومة تحت السطح، الأقباط والحملة الفرنسية'، والدكتورة ليلي عنان يبحث تحت عنوان 'كيف وظف نابليون الفن للدعاية لحملته على مصر'، والدكتور علي كورخان يبحث تحت عنوان ' صورة نابليون من الدعاية الى الاسطورة بين فرنسا ومصر'، كما شارك الدكتور صبري العدل يبحث تحت عنوان 'الحملة الفرنسية وأسطورة نقل العلوم الحديثة الى مصر في القرن الثامن عشر'، وشارك الدكتور **روؤف عباس** يبحث تحت عنوان 'مشروع قناة السويس بين الحملة الفرنسية وديلبسيس'، وشاركت الدكتورة مديحة دوس يبحث تحت عنوان 'المنشورات والأوامر الصادرة باللغتين العربية والفرنسية بين أعوام 1798 - 1801'، وشاركت الدكتورة داليا علي محمد يبحث تحت عنوان ' دراسة لغوية لسبعة منشورات صادرة باللغتين الفرنسية والعربية'، والدكتورة مها جاد الحق شاركت في بحث تحت عنوان 'قراءة نقدية لترجمة كارمان لحواليات الجبرتي ونيقولا الترك حول الحملة الفرنسية'، وشاركت الدكتورة مثال خضر يبحث تحت عنوان ' وصف مصر - نظرة الآخر'، وشاركت الدكتورة هناء فريد يبحث تحت عنوان ' الرفض والرفض المضاد '، والدكتورة عايدة حسني شاركت في بحث تحت عنوان ' قراءة سيميوطيقية لبعض لوحات قسم الآثار في كتاب وصف مصر ورحلة فيضان ديتون'، وشاركت الدكتورة رغدة أبو الفتوح يبحث تحت عنوان ' قراءة في رحلة فيضان ديتون، رحلة في مصر السفلى العليا خلال حملات الجنرال بوناپرت'.

وقدمت الدكتورة فريدة جاد الحق بحثا آخر بعنوان ' الحملة الفرنسية في الخطاب التاريخي الفرنسي ونموذج الكتب المدرسية للمرحلة الابتدائية'. وقدمت هناء فريد أيضا ورقة بعنوان ' الحملة الفرنسية في الخطاب التاريخي المصري ودراسة تحليلية لمناهج مادة التاريخ في المرحلة الإعدادية'، وقدمت الدكتورة جيهان القاضي بحثا بعنوان ' صورة المصريين والفرنسيين أثناء الحملة عن بعض المؤرخين والفرنسيين خلال حكم الملك فؤاد الأول'، وقدم الدكتور محمد صبري الدالي بحثا بعنوان ' اتجاهات في

نفسير نتائج الاحتلال الفرنسي لمصر، وقدم الدكتور صادق نعيمة بحثاً بعنوان 'محصلة متعارضة، وجهة نظر المؤرخين المصريين'، وقدم الكاتب محمد إسماعيل زاهر ورقة بعنوان ' الحملة الفرنسية: الوعي بالتاريخ من خلال الآخر'، وقدم الدكتور عاصم الدسوقي بحثاً بعنوان ' الفرنسيون في مصر واستشارة العقل'. يقع الكتاب في حوالي 750 صفحة من القطع الكبير وجاء مزوداً ببعض الصور والوثائق التي شهدتها الحملة.

[السؤال طرحته](http://www.alquds.co.uk/index.asp?fname=2009\11\11-25\24qpt87.htm&storytitle=ff) <http://www.alquds.co.uk/index.asp?fname=2009\11\11-25\24qpt87.htm&storytitle=ff> [محمود](http://www.alquds.co.uk/index.asp?fname=2009\11\11-25\24qpt87.htm&storytitle=ff) [!fff&storytitleb=](http://www.alquds.co.uk/index.asp?fname=2009\11\11-25\24qpt87.htm&storytitle=ff) [الجمعية التاريخية والإجابة لعشرين باحثاً: الحملة الفرنسية على مصر هل كانت مشروعاً للتنوير؟](http://www.alquds.co.uk/index.asp?fname=2009\11\11-25\24qpt87.htm&storytitle=ff) [قرني](http://www.alquds.co.uk/index.asp?fname=2009\11\11-25\24qpt87.htm&storytitle=ff) [&storytitlec=](http://www.alquds.co.uk/index.asp?fname=2009\11\11-25\24qpt87.htm&storytitle=ff)